الحرب خدعة

فتح السودان وواقعة ام درمان

لما عاد سردار الجيش المصري فائزًا منصورًا من واقعة ام درمان اختلف المقدّرون في قيمة النصر الذي اوتيه والاكثرون على تعظيمه وحسبانه من امجد الاعمال التي عملها عاظم القوّاد في كل زمان ومكان ولذلك احتفل به قومهُ احتفالاً نادر المثال وبعضهم حقّر عملهُ وعزا نجاحهُ الى حسن اسلحته وجهالة خصومه بفنون الحرب . لكن المؤرخ لا يبني احكامهُ على عواطف الناس وما يرويه تجار الاخبار بل يتشد الحقيقة ضالتهُ ويبذل الجهد في تجريدها من غواشي الاوهام حتى اذا ظفر بها عرضها على اسماع العقلاء

وقد اطلعنا على مقالة للجنرال فردرك موريس في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فرأينا فيها تفصيلاً لم نرهُ في غيرها من كل ما وقفنا عليه في هذا الموضوع وكشفًا لامور لا بدَّ من تسطيرها في تاريخ الحرب السودانية واتفق بعد ان اتممنا قراءتها ان زارنا رجل مشهور اقام في ام درمان سنين عديدة فسألناهُ عما اذا كان قد سمع عن هذه المقالة فرأيناهُ خالي الذهن منها ثم سألناهُ عن اهمّ ما فيها من الحقائق فوجدناهُ يرى رأي الكاتب ويعتقد اعتقادهُ وهاك خلاصة المقالة وما سمعناهُ منهُ مثبتًا لها . وغرضنا من ذلك اثبات حقيقة تاريخية لا النظر اليها من وجوهها السياسيَّة والاجتماعيَّة . قال الجنرال موريس ما خلاصتهُ

لم يكن الملك هنري الخامس ليلة واقعة اجنكور[1] ولا القائد ولنتون قبيل واقعة سلامنكا[2] في حالة ادعى الى الاضطراب من الحالة التي كان فيها اللورد كتشنر ليلة واقعة ام درمان . وقد وقفت على آراء كل الذين كان لهم شأن في تلك الواقعة واحدًا واحدًا فرأيتهم متفقين على انهُ لو يتّهم الدراويش اي لو هجموا على معسكرهم ليلاً لكان دخولهم اليهِ ممكنًا . هذا ما اتفقوا عليهِ كلهم مع اني سألت كلاً منهم على حدة ولكني رأيتهم مختلفين قليلاً في درجة هذا الامكان فان الليلة كانت قمراء ولا خوف من احتجاب القمر بالغيوم في تلك البلاد فيحتمل ان النار الدائمة التي صدَّتهم عن المعسكر في النهار كانت تصدهم في الليل ايضًا . ثم رأيتهم متفقين

(١) بلدة فرنسوية حدثت فيها واقعة شهيرة سنة ١٤١٥ بين الانكليز والفرنسويين فكان النصر فيها للانكليز

(٢) مدينة في اسبانيا على مئة وعشرة أميال من مدريد حدثت في ضواحيها واقعة شهيرة بين ولنتون القائد الانكليزي ومارمون القائد الفرنسوي سنة ١٨١٢ فكان النصر فيها للانكليز

على انهُ لو نجح الدراويش سيفي دخول المعسكر لكان الفوز لهم لانهم كانوا ضعفي الجنود الانكليزية والمصرية عددًا على الاقل ولا يسوغهم احد في استعمال السلاح الابيض. واستعمال البنادق في حرب الليل لا يفيد بن يضر

وقد قال لي واحد من الذين نامُوا قليلاً تلك الليلة " قلَّ من يعلم ما يقع بك اذا دخل العدو معسكرك ليلاً فان الصديق يقتل الصديق حينئذٍ وتصدر الاوامر من القوَّاد متناقضة ويزيد فتح الايواق في اضطراب الجنود والغبار في حلك الظلام . ولكننا نجونا من ذلك كلهِ بانتظار العدو نور النهار "[1]

ولكن لماذا انتظر الدراويش الى الصباح ولم يهجموا ليلاً فانهم كانوا خمسين الفًا من الابطال المحكمين المستبسلين وكانوا نازلين على ثلاثة اميال فقط من المعسكر الانكليزي المصري ورآهم السردار كذلك صباح اليوم الاول من ستمبر وانسهل يموج بهم كالبحر الزاخر ورماحهم واعلامهم تسدُّ الفضاء ولم يكن المعسكر الانكليزي المصري قد انتظم ولكنهُ انتظم سريعاً ولو هجم عليهِ الدراويش نهارًا بعد انتظامهِ ما كان من هجومهم خطر ولكنهم تربصوا في اماكنهم كأن غرضهم الهجوم في الليل لا في النهار على جاري عادة اهل كردوفان وهذا الخطار كل الخطر

وقد ثبت بعد ذلك ان الخليفة خرج من ام درمان وغرضهُ الهجوم ليلاً لا نهارًا وهذا الذي كان السردار يخشاهُ وهذا الذي بذل جهدهُ في منعهِ. فاولاً وصل الى امام ام درمان قبل الوقت المحدَّد لوصولهِ بستة ايام فان اليوم المحدَّد كان السابع من ستمبر وكان الخليفة يعلم ذلك لان عيونهُ وارصادهُ كانوا مبثوثين في البلاد كلها الاَّ ان السردار غيَّر هذا الميعاد سرًّا وبذل من الجهد ما يفوق التصوُّر حتى جعل الحملة تصل في اليوم الاول من ستمبر لكي يكون هناك والقمر بدر (١٤ ربيع الثاني) حتى اذا بيَّتهُ الدراويش لا يسهل دخولهم معسكرهُ ولا يقع الاضطراب في جيوشهِ. لكن البدر يغيب قبل الفجر وحينئذٍ تشتدُّ الظلمة فهل ينتهز الدراويش تلك الفرصة ويهجمون في حلك الظلام . قال لي واحد من الذين حضروا واقعة ام درمان وابلوا فيها بلاءً حسنًا " انهُ لو فعل الدراويش ذلك وهجموا علينا قبل الفجر بمثل البسالة التي هجموا بها في النهار لمزَّقنا شملنا تمزيقًا ورمينا انفسنا في النيل " . وقد افرغ السردار وسعهُ في التأهب لذلك حتى لا يؤخذ على غرة ولكن في جعبة القائد المحنَّك الحكيم وسطة

---

(١) وقد سألنا الرجل المشار اليهِ ما قولك لو هجم الدراويش ليلاً على الجنود الانكليزية والمصرية فقال لو فعلوا ذلك ما رجع احد من الجنود الانكليزية والمصرية لمخبركم بما حدث بل لذهبنا كلهم قتلا وغرقًا

أخرى لادراك تلك وهي الخدعة . فاذا استطاع ان يخدع خصمه ليعتقد انهُ قاصد غير ماهو قاصد فقد يستطيع ان يجني من الشرك وردًا . وهذا ما فعلهُ السردار فتجنّى رجالهُ ودارت الدائرة على الدراويش فانهُ اتبع بعض السودانيين الذين يتردّدون بين المعسكرين انهُ عازم على مهاجمة الخليفة تلك الليلة فسرَّ الخليفة بهذا الخبر واستبشر بالنصر القريب واخّر هجومهُ الى ان يهجم السردار عليه اولاً ويلقي بنفسه في مخالبه . والوقت الاصلح للهجوم قُبيل الفجر فانتظر الليل كلهُ ولما رأى ان السردار احجم عن الهجوم نفد صبرهُ فهجم هو وكان من امرهِ ما كان [1] (كما فصّلناهُ في غير هذا المكان)

ثم ان الخليفة كان يقصد الايقاع بجنود السردار وذبحهم كلهم عن بكرة ابيهم وذبح كل الاوربيين الذين في ام درمان فيتخلص من اعدائهِ دفعةً واحدة [2] فجاء الامر على ضد ما قصد وقُتل الدراويش في حومة الوغى ولكنهم لم يموتوا موت الجبناء بل موت الابطال وقد كانوا من اطغى الجبارين الذين عاثوا في الارض فسادًا ولم يكن غرضهم من ثورتهم وعصيانهم سوى الرجوع الى تجارة الرقيق بكل فظائعها وهي صناعة البقارة بنوع خاص وهم الذين نصروا الخليفة وثبتوا معهُ الى النهاية وهم الذين حوّلوا غرض المهدي الديني الى غرض تجاري شهواني ولا يمكن ان تفجو بلاد السودان من شرّهم الاَّ باستئصالهم منها . وقد توالى صراخ القبائل التي جاروا عليها وظلموها سنة بعد سنة . فلم يشتوا الاَّ لانهم كانوا مصرين على التنك بنا فانهم كانوا موقنين انهم اذا دخلوا الزريبة تمَّ الفوز لهم اذ هم اسهر منا في استعمال السلاح . بالتهم فائقة ولكنها مثل بسالة

(١) سألناهُ ايضًا لماذا لم يهجم الخليفة على السردار ليلاً فقال اما من جهتي فاقول لكم الحق انني بذلت جهدي في خداعهِ فان الخليفة كان يكرمني ويحابيني في وقت واحد لانني كنت دائمًا اتهدَّدهُ املاً ان يشتد غيظهُ مني ويأمر بقتلي فيريحني من الحياة المرَّة التي كنت فيها لكنهُ لم يفعل لانهُ كان يعتقد فيَّ حسن الراي وكانهُ اراد ذخري لنوائب الزمن فاتاني بعض حاشيتهِ في غرة سبتمبر وسألوني عما اظنهُ من قصد السردار فعلمت انهم آتون من قبلهِ ولو لم يعترفوا بذلك وقلت لهم انهُ لا بدَّ من ان يبيتكم ليلاً لان رجالهُ اقل من رجالكم فيوقع بعضكم ببعض قلت ذلك وانا اقصد خداعهم لانني كنت اخشى من تبييتهم هم يجنود السردار والظاهر انهم صدقوا قولي . ولما اخبرناهُ بما قرأناه من كلام الجنرال موريس دُهش وقال اذًا قد فعلت ما ارادهُ السردار عن غير علم

(٢) سألناهُ ايضًا ما ظنك في الخليفة هل كان واثقًا من نفسهِ بالفوز على الجنود المصرية والانكليزية فقال هذا الذي اعتقده وهذا الذي كنا نعتقده كلنا في ام درمان لان جنوده من ابسل جنود الارض وقد خرجوا الى الحرب مستقتلين خرجوا ليقتلوا او يقتلوا وقد اتضح الآن انهم ماتوا في حومة الوغى مستبسلين ولو فازوا بخرق صفوف السردار لكان الفوز لهم ولو في النهار بل اولا مكوندلد ومهارتهِ لكان الفوز للدراويش على ما يظهر لي

الاسد الضاري وليس فيهم صفة محمودة غيرها وعندي انه لو اعترضهم احد منها قبله لا سيما وانهم اختاروا الرحيل عنها من تلقاء انفسهم . انهُ لما قُتل جليات الجبار بالحجر لم يكن لهُ وصول الى داود ولكن ذلك لا يجعلنا نشفق عليهِ ونلوم داود على قتلهِ . ولم ينسب احد فخر ظفرهِ لمقلاعهِ وقد كان متمرناً على استعمالهِ اكثر مما كانت جنودهُ متمرنة على استعمال ادوات الحرب التي استعملتها

هذا من حيث الواقعة نفسها اما من حيث هذه الحرب فان كثيرين منا كانوا في قلق دائم لئلاَّ يشير احد على الخليفة ان يتقدم بجنودهِ الخمسين الفاً ويوقع بالجنود المصرية قبل ان تجتمع الجنود الانكليزية لاسيما وانها كانت متفرقة في اماكن كثيرة من دنقلة الى كسلا قبلما تُسَّ سكة الحديد . الاَّ ان خوفنا لم يكن في محلهِ لان حكم الخليفة كان قد جعل تلك البلاد الخصيبة قفراً يلقعاً فلم يعد يستطيع الزحف بجنودهِ كلها مسافة طويلة لانهُ لا يقدر ان يجد لها الميرة الكافية ولا عندهُ جمال كافية لنقلها مسافة طويلة . ولم يكن يأمن على نفسهِ اذا ابعد عن عشهِ طويلاً ولا كانت رفاهة عيشهِ تبيح لهُ البعد وهو على ما يعلم من كثرة الشاء والسراري ولم يكن يأمن احداً على جانب كبير من جيوشهِ ولذلك تولى قيادة جيشهِ بنفسهِ . وقد كان السردار يعلم هذا كلهُ ويرقبهُ بالدقة التامة ويخفي مقاصدهُ على قدر طاقتهِ لكي لا تبلغ الخليفة . وقد فعل ما فعل وهو مكتوف اليدين بالقيود المالية التي قُيدت بها الحكومة المصرية ويضاف الى ذلك اهتمامهُ لكي لا تصل الجنود الانكليزية قبل الوقت اللازم لوصولها لئلاَّ تزيد النفقات وتسأم الصبر فتضعف عزائمها وعزائم الجيش المصري ايضاً . ولقد كانت المسؤلية عظيمة جداً على السردار وعلى اللورد كرومر لكي يوفقا بين كل هذه المطالب فوفقا بينها بالدقة التامة كما ثبت من نتائجها . والفضل في جانب كبير من نجاحها لما في قلم المخابرات من تمام الكفاءة ولمهارة الفرسان ولتمكن السردار من اخفاء مقاصدهِ . ولما رأى الخليفة ان السردار يعتمد على الهجوم لا على الدفاع وباغت خصمهُ مباغتة صدَّق ما قيل لهُ من انهُ عازم على الهجوم عليهِ ايضاً لمام ام درمان قبل فجر اليوم الثاني من ستمبر فاضاع من يدهِ فرصة الهجوم ليلاً

ومن اعظم اعمال السردار المالية التي توقف عليها نجاح هذه الحرب مد سكة الحديد في قلب الصحراء حيث تكون بمأمن من غارات الدراويش فانها قصرت المسافة من حلفا الى بربر وجعلتها نصف ما هي وسهلت نقل الميرة والذخائر وقصرت مدة اقامة النجدة الانكليزية في القطر المصري فاقتصد جانب كبير من نفقاتها ولعل المقتصد يساوي نفقات انشاء السكة الحديدية ويصعب على الجنود الانكليزية ان النصيب الاوفر من حومة الوغى وقع للواء الكولونل

مكدونلد لا لهم ولكن ذلك يعود بالفخر علينا . وأكثر هذا اللواء من السودانيين والفرق بينهم وبين المصريين الذين حاربوا معهم كتفاً بكتف انما هو في ان السودانيين حاربوا عن طيب نفس واما المصريون فربما كانوا يفضلون ان لا يحاربوا ولكن اذا تذكرنا ان جنود هكس مضوا الى القتال منذ ست عشرة سنة وهم يكون وان باكر باشا وهو من افضل قوادنا كلهم لم يستطع ان يجعل ثلاثة آلاف منهم يقفون امام ١٢٠٠ من العرب فهمنا مقاد ما فعلته جنود مكدونلد فهمنا ان امة بامرها هبّت من سباتها وطرحت ما البستها اياهُ قرون الاستعباد الماضية ولذلك تفتخر بما فعلهُ لواء مكدونلد لان فخرهُ عائد الينا

ثم استطرد الى ذكر الاسلحة التي استعملت في واقعة ام درمان وقال انها قد غيّرت اساليب الحرب عما كانت عليهِ منذ عشرين او ثلاثين عاماً

الجرائم والاوهام

لا مشاحة في ان العمران حديث في اوربا وان اهاليها لم يكسروا قيود التقليد ولم يخرجوا من ربقة الاوهام الاَّ منذ عهد حديث. وهم على ما بلغوهُ الآن من الارتقاء علماً وصناعة وتجارة لا يزال بعضهم غائصاً في بحار الجهل مكتنفاً بالاوهام والخرافات التي يضحك منها عامتنا فضلاً عن خاصتنا وقد رأينا لذلك امثلة كثيرة في مقالة مسهبة للاستاذ اقانس فنقلنا بعضها عنهُ

من ذلك قتل الاطفال اعتقاداً بانهم من اولاد الجان وهو عادة شائعة عند العامة في اوربا كلها فاذا ولد لبعضهم ولد سقيم قالوا ان جنيّة اخذت الطفل السليم ووضعت بدلاً منهُ طفلها السقيم فيضربون الطفل بقضبان المرعن الى ان تشفق امهُ عليهِ وتسترجعهُ والاَّ اكثروا ضربهُ او رموهُ على مزبلة او سلقوهُ بالماء الغالي حتى يموت. وقد حدث شيء من ذلك في مدينة نيوبورك نفسها سنة ١٨٧٧ فان رجلاً ارلنديًّا وزوجتهُ قتلا طفلهما حاسبين انهُ طفل جنيّة بدلت بهِ طفلهما الحقيقي. وامثلة ذلك كثيرة في ارلندا حتى ان الابوين قد يقتلان ولداً بالغاً من اولادهما اعتقاداً انهُ من اولاد الجان . ومنذ مدة وجيزة مرض ولد ارلندي عمرهُ اربع سنوات وسقم جسمهُ ولم ينجع فيهِ علاج فقال ابواهُ انهُ ليس ابنهما بل ابن جنيّة بدلت ابنهما بهِ فغليا ماءً ووضعاهُ فيهِ فجعل يبكي ويستغيث ولا مغيث الى ان قضى نحبهُ ونجاهُ الموت من عذاب النار

وذكر الكاتب وقلَّ منهزت انهُ رأى رجلاً يعذب ابنهُ في قرية غربي بروسيا ولما سألهُ